تقديم

يأتى هذا الكتاب، الذى ألفه بالفارسية المفكر الإيرانى النّابه السيد الدكتور عطاء الله مهاجرانى، فى سياق الجهود التى يبذلها المفكرون فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى للردّ على الحملة المحمومة التى يشنها عدد من الكتاب الغربيين لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، والتى بلغت أقصى مداها بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

ويتولى قيادة هذه الحملة المستشرق الإنجليزى الأصل «برنارد لويس»، بعد أن أصبح الآن واحداً من أهم المستشارين فى الشئون الخارجية فى الكونجرس الأمريكى، بل بدا وكأنه الموجّه والمنظّر لليمين المحافظ الجديد فى أمريكا لصياغة السياسة العدوانية المعادية للعرب والمسلمين، والتى تؤيد الأهداف العنصرية للصهيونية وتناصر أعمال البلطجة والعنف التى تمارسها إسرائيل فى المنطقة.

وبفضل هذه الحملة أصبح الإسلام لدى الرأى العام الغربى يعنى الإرهاب والتعصب وتحقير الآخر ورفضه، وأصبح المسلمون يمثلون أكبر خطر على الغرب وحضارته، لأنهم لا يحسنون استيعاب ما اقتبسوه من الغرب، فبات من الصعب عليهم اللحاق بركب المدنية الحديثة، ومن ثَمَّ انقلبوا على الغرب يصبون جام غضبهم عليه لتبرير تخلّفهم وعجزهم.

وكان عدد من المفكرين العرب وغير العرب قد تنبهوا، قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، إلى خطورة النتائج التى من شأنها أن تترتب على ذلك التشويه المعتمّد وتلك التّهم الباطلة الجائرة، فتناولوا آراء «لويس» وبطانته بالتفنيد، وبيّنوا الدوافع الخفية الكامنة وراء أعماله وكتاباته التى تبدو فى ظاهرها ذات طابع علمى محايد، ولكنها فى باطنها تنضح بالسمّ وتنطوى على حقد بالغ وضغينة كامنة، وحيدة

فى الحق وبُعد عن الإنصاف. وكان من بين هؤلاء المفكرين إدوارد سعيد (فى كتابه الاستشراق الذى أصدره بالإنجليزية فى نيويورك سنة ١٩٧٨م)، وإيرفينج (فى مقالاته التى نُشرت فى أمريكا سنتى ١٩٨٥ و١٩٩٠م وبخاصة مقاله المعنون «دفع أمريكا للحرب ضد الإسلام»، وغيرهما.

ولكن ـ على الرغم من ذلك كله ـ عاد «برنارد لويس» من جديد وهو أشد مما كان ضراوة وعداء فى الكيد للإسلام والمسلمين، متخذاً من أحداث الحادى عشر من سبتمبر ذريعة يتعلل بها لتبرير حججه الواهية وافتراءاته الباطلة، فأصدر كتابين أولهما: What Went Wrong: أين الخطأ (سنة ٢٠٠٢م)[١]، والثانى فى السنة التالية مباشرة (٢٠٠٣م) بعنوان The Crisis of Islam: أزمة الإسلام[٢]، وقد نقله أحمد هيكل إلى العربية وقدّم له الدكتور رؤوف عباس بمقدمة ضافية بيّن فيها «طفح المغالطات» التى وردت فى الكتاب، وردّ فيها على العديد من الأكاذيب والشبهات. غير أن تلك المقدمة التى كتبها المفكر والمؤرخ العربى الكبير الدكتور رؤوف عباس لم تكن تكفى وحدها، وكان لا بد أن يتصدى المفكرون والكُتّاب فى سائر أرجاء العالم الإسلامى وأن تتضافر جهودهم للوقوف فى وجه هذه الحملة الجامحة وبيان ما تشتمل عليه من أباطيل وضلال.

***

لقد حشد الدكتور عطاء الله مهاجرانى مَلَكَاته وقدراته لا لكى يردّ ـ فى هذا الكتاب ـ على «برنارد لويس» وإنما لكى يحلل آراء بعض مشاهير الكُتّاب الغربيين ممن اشتعلت قلوبهم حقداً على الإسلام كالكاتبة الإيطالية «أوريانا فالاتشى»، كما بيّن مدى فساد النتائج التى ينتهى إليها «صموئيل هنتنجتون» فى نظريته الخاصة بصدام الحضارات. ولم يتوقف مهاجرانى عند حدّ انتقاد الآخر، وإنما أخذ يكيل النقد لمن يتكلمون باسم الإسلام والمسلمين، ويدعوهم إلى أن يُصلحوا نظرتهم إلى الآخر، وأن يلتفتوا إلى أخطائهم فى التعامل مع الغرب.

(١) نقله إلى العربية الدكتور محمد عنانى، ونشرته «سطور» فى سنة ٢٠٠٣م.

(٢) نُشر الكتاب ضمن المشروع القومى للترجمة «المجلس الأعلى للثقافة» فى سنة ٢٠٠٤م، واختار مترجم الكتاب ـ الأستاذ أحمد هيكل ـ أن يكون عنوانه «الإسلام وأزمة العصر» بدلاً من «أزمة الإسلام» الذى وضعه مؤلفه.

وأبدى مهاجرانى فى الكتاب قدرة وبراعة كبيرة على الحوار والجدل، وبدأ فى صورة المناظر المتمرّس فى البحث والمناظرة، فهو يعرض للقضايا التى يناقشها عرضًا يبين خفاياها ويوضح أبعادها، ثم يعمد إلى فصل عناصر هذه القضايا بعضها عن بعض، ويبدأ فى مناقشتها الواحد تلو الآخر فى تؤدة وأناة، حتى يخلص فى النهاية إلى حكم عام فى القضية.

وربما كان انخراط مهاجرانى ـ الذى ولد فى سنة ١٩٥٤م ـ فى سلك التعليم المدنى من ناحية ونشأته فى جوّ دينى وهو فى كنف أبيه «آية الله مهاجرانى» من ناحية أخرى، واقتحامه معترك الحياة السياسية فى مقتبل عمره وهو فى الخامسة والعشرين من عمره من ناحية ثالثة قد أوجد فى نفسه هذا الميل إلى التوفيق بين الآراء المتعارضة، كما زوّده بقدرة ملحوظة على الحوار والجدل كثيرًا ما أبداها فى تصريحاته ومحاضراته، التى حضرت بنفسى واحدة منها أثناء مشاركتى ضمن الوفد المصرى فى مؤتمر حوار الحضارات المنعقد فى طهران (سنة ٢٠٠٣م). وقد ألقى مهاجرانى كلمته فى بلاغة وفصاحة عبارة وإقدام وطلاقة لسان، وكان موضوع الكلمة يدور حول أهمية الحوار الحضارى للمجتمع الإنسانى.

وقد ظل هذا الميل إلى التوفيق بين الآراء المتعارضة والالتزام بآداب الحوار سنّة متّبعة لدى مهاجرانى حتى بعد أن أصبح وزيرًا للثقافة فى بلاده، فأقر لوزارته برنامجًا يتسم بالمرونة والسّعة لممارسة النشاط الثقافى والفنى، والحفاظ على الهوية والاستقلال الثقافى، ورفع الروح المعنوية والتأكيد على الثقة بالنفس.

وفى مواجهة الحملات الضارية التى شُنّت عليه من أطراف عديدة واشتملت على نقد عنيف لأسلوب عمل وزارته أبدى مهاجرانى قدرًا لا بأس به من رباطة الجأش، واعترف بأن الخطأ فى التطبيق أمر وارد، ولكن النجاحات التى حققتها وزارته ـ وبخاصة فى حصد الأفلام الإيرانية لأعلى الجوائز العالمية ـ تُبين إلى أى حد يمكن أن يشتمل العمل الإنسانى على النجاح والخطأ فى آن واحد. وقد آثر مهاجرانى فى النهاية التنحّى عن منصب الوزارة، فقدم استقالته إلى الرئيس محمد خاتمى الذى أسند إليه رئاسة مركز حوار الحضارات فى طهران.

***

وأثناء رئاسته لهذا المركز أصدر هذا الكتاب الذى يسعدنا ـ أنا ومترجمه وزميلى الدكتور عادل عبد المنعم سويلم ـ أن نضعه الآن بين يدى القراء العرب، للاطلاع على آراء واحد من كبار المفكرين الذين يحظون بمكانة رفيعة بين المثقفين فى إيران وغيرها من بلدان المشرق الإسلامى، ولكى يكون الكتاب مدداً وزاداً تتزود به حركة الدفاع عن الحضارة الإسلامية فى مواجهة خصومها.

والله ولى التوفيق، ، ،

د. محمد السعيد جمال الدين

* * *